مقاومة قبائل الركيبات للإستعمار الإسباني

أحمد الدليمي

أستاذ باحث – الداخلة

أولا أريد أن أشير إلى أن موضوعي سيتمحور حول جهاد الركيبات ضد الاستعمار الفرنسي والإسباني بالخصوص. كما أريد أن أثير نقطة منهجية تتمثل في كوني اعتمدت في الموضوع على مسودة لكتاب لم يطبع بعد، وهو مخطوط يحمل عنوان «تأملات في ذاكرة قبيلة الرقيبات في الصحراء المغربية».

كما اعتمدت في هذا البحث على الرواية الشفوية ولم أعتمد نهائيا على أي مصدر أو مرجع أجنبي، وهذا ليس حذرا مني مادمت ألح على أنه لابد من الاعتماد كذلك على المراجع الاستعمارية الفرنسية لأن ربما قبيلة الركيبات هي التي نالت حصة الأسد في الكتابات الأجنبية بدون منازع.

إذا وقفنا على واقع الكتابة التاريخية حول الصحراء المغربية نجد أن مجمل تاريخ المنطقة لم يكتب بعد بالشكل الذي نريده نحن الباحثين المغاربة، وأظن هذا راجع لغياب المادة التاريخية التي لم تجتمع بعد، بالإضافة إلى أن الدراسات الموجودة في غالبيتها أجنبية تطغى عليها الكتابات الكولونيالية التي كان يغلب عليها هاجس خدمة أغراض استعمارية بالدرجة الأولى. وتبقى الكتابات الحديثة رغم محاولتها استخدام مناهج بحث جديدة إلا أن الخلفيات الإيديولوجية شوشت على مكانتها العلمية، وبالنسبة للموضوع الذي نحن بصدده وهو جهاد قبيلة الركيبات فقد حضي بحصة الأسد بالنسبة لهذه الدراسات خصوصا الفرنسية منها وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى أن «الأراضي المترامية الأطراف كانت تجوبها هذه القبيلة البدوية قاطعة الأرض

شمالا وجنوبا شرقا وغربا بحثا على الكلأ والماء، وكانت تسمى : «أرض البيضان» حيث كانت تجسد مناطق الاقتصاد الرعوي. لذا حاولنا تقسيم مداخلتنا إلى جزئين :

الجزء الأول : جهاد قبيلة الركيبات من سنة 1905 إلى حوالي 1932 أو 1934.

الجزء الثاني : مقاومة قبيلة الركيبات بصفوف جيش التحرير خلال الخمسينيات.

فعلى المستوى الأول إن افتخار الشعراء بالقبيلة من خلال الشعر الحساني الغزير والغني بالمعلومات والمعاني التاريخية يمكن من التعرف على المعارك والأحداث ومعرفة نوع الأسلحة التي استعملت في المعارك كسلاح الوروار والرباعيات إلى غير ذلك، ومن الأحداث المهمة الموثقة في هذا الشعر نزول COPOLANI الفرنسي سنة 1902 الذي توفرت عليه معلومات شفوية والتي لانجدها أحيانا في الكتابات الفرنسية فقد اقتصرنا في تعداد الغزوات والمعارك التي خاضها الشرفاء الركيبات، لكن لم نستطع الوقوف عليها جميعها نظرا لضخامتها ووفرة معلوماتها وقد بلغت على الأقل كما جاءت في المسودة 30 صنكة، والصنكة هي كلمة حسانية تعني الجيش المكون من فرق، والمراد به تعقب مجاهدين الركيبات. المعركة الأولى كانت بمنطقة لگويشيش الواقعة بناحية نواكشوط سنة 1905 حيث عمر الفرنسيون هذه المنطقة، لكن قبيلة الركيبات تصدت لهم فأغارت عليهم محدثة خسائر في الأرواح وغنمت غنائم كثيرة.

ونجد أن قبيلة الركيبات تنقسم إلى قسمين : القاف والگاف، فرقة القاف كان يترأسها السيد البلال ولد أحمد الكيحل، وفرقة الگاف يترأسها محمد الخليل وتتمركز بموريتانيا، وبعد انتصار الركيبات على الفرنسيين في الواقعة

السالفة الذكر حاول زعيمهم محمد الخليل استثمار هذا الانتصار سياسيا وذلك تأمينا على أرواح المسلمين، والحفاظ على الانتصارات أي : نهج الأسلوب السياسي من موقع القوة لكن أحد رجاله وهو محمد ابراهيم ولد السربيت رفض هذه الفكرة. فوقع انقسام في الأسلوب السياسي في الحرب ضد الاستعمار مما اضطره ومجموعة معه أن يهاجروا إلى الساقية الحمراء بالصحراء المغربية (السمارة) حيث سيلتقون – حسب رواية كتاب «تأملات في ذاكرة قبيلة الركيبات بالصحراء المغربية» بالشيخ محمد لغظف ولد الشيخ ماء العينين ومعه زمرة من تلامذته وكانوا لايملكون آنذاك إلا ناقة واحدة وكانت ظروفهم الاقتصادية قاسية مما دفع قبيلة الشرفاء الرگيبات أن يرحلوا هم بمنطقة الگعدة الواقعة بين طرفاية والطنطان، لأن تلك المنطقة كانت خصبة وبها الكلأ للماشية. وكان في استقبالهم الرگيبات القاطنين بالمنطقة السالفة الذكر.

ونظرا للقرار الذي اتخذه هؤلاء برفضهم نهج الأسلوب السياسي، ومعرفة الفرنسيين بأن الرگيبات سينظمون أنفسهم من جديد لينطلقوا نحو مراكز الوجود الاستعماري لضربهم في مواقعهم، فقد توجه الجيش الفرنسي متعقبا المجاهدين حيث ستدور معركة قوية بين الطرفين استدعت التحاق الرگيبات القاطنين بالمنطقة بالصفوف فأغاروا على جيوش فرنسا وعملائها وحاصروهم وألحقوا بهم هزيمة قاسية تكبد فيها العدو خسائر في الأرواح والعتاد والمؤن.

بعد ذلك ستتعاقب هجمات قبيلة الرگيبات على المستعمرين كلما علموا بتشييد صنكة أو وجودها في أماكن ما من رقعة الوطن مجال انتجاع قبيلة الرگيبات بحيث علموا في سنة 1909 بخبر مفاده أن هناك صنكتين متمركزتين بين فرقة محمد الخليل وفرقته في منطقة إسمها احميم الواقعة بين اطار نواكشوط ونواديبو فهاجم الرگيبات العدو وكان يقود رجال القبيلة السيد محمد سالم محمد الدخيل هذا الذي استشهد في المعركة نفسها وانتصر الرگيبات على النصارى كما العادة ملحقين بهم خسائر فادحة.

ونظرا للنتائج الباهرة لهذه الحادثة قامت فرقة من نفس المحاربين الركيبات إسمها «اركجين» بعملية تمشيط واسعة النطاق في منطقة أدرار إلى أطار في شنكيط. أمام هذا الوضع الخطير قام رئيس الجيوش الفرنسية (جرار) باستنفار قوة هائلة مباشرة بعد انتهاء هجوم احميم تضم الأسود والأبيض إلى غير ذلك من أهل أدرار أولاد غيلان وأهل تگان ويعيش وأهل بكار ولد سيدي أحمد أهل غيلان والترارزة مع أميرهم محمد لحبيب ومن السودان الصنادرة إلى غير ذلك... وكان معهم محمد ابن مقداد وهو سنغالي كان يعمل للمخابرات الفرنسية.

وعندما زحف الفرنسيون وعملاؤهم السالفي الذكر نحو الساقية الحمراء ووصلوا إلى منطقة بطاح الزويرات أمر قائد الجيوش الفرنسية جيرار أولاد غيلان أن يرابطوا بمنطقة لحمادة برئاسة سيد أحمد التكدي، وقد عرفت المنطقة العديد من الأحداث أبرزها وقوع معركة فاصلة بين هؤلاء وقبيلة الركيبات التي ستهزم أولاد غيلان حيث قتل 20 منهم وأسر 40 فردا، ففر زعماء أولاد غيلان كلهم. وفي هذا الوقت كان القائد الفرنسي جيرار متوجها في مسيرة من الجيوش للسمارة التي وصلها ليلا ووجد بها عبدا واحدا فأسره، وكذا تلميذا سيفر ليخبر قبيلة الركيبات وهو محمد نافع ولد حمدها ومن نتائج المعركة قتل العديد من أفراد الجيش الفرنسي وأعوانهم السنغاليين وقد فر قائد الترارزة العرب الموالين لفرنسا المسمى محمد لحبيب، كما فر عبد الرحمان ولد سيد أحمد إلى غير ذلك من زعماء العملاء الذين كانوا مع الفرنسيين.

وبعد القضاء على قائد الجيش الفرنسي جيرار خاضت قبيلة الركيبات، المجاهدة معارك طاحنة ضد صنكات أخرى والمكونة من المتآمرين وهذا يظهر استمرارية جهاد الركيبات في الدفاع عن الوطن والوحدة الترابية للمملكة الشريفة، وهكذا سيواجهون بالتتابع صنكة «حفرة ودان» ثم صنكة «أبند»

شرق موريتانيا، وقاد هذه المعارك محمد يوسف وعلي ولد ميارة وأحمد الحمادي واسماعيل ولد الباردي. إضافة إلى الكثير من الصنك، وهذا ما يبين أن التاريخ مليء بالأحداث (عبر الروايات والمصادر الشفوية) خصوصا المتعلقة بقبائل الصحراء المغربية.

لقد عملت فرنسا جاهدة كما عرف في الأدبيات الكولونيالية بسياسة اليد الممدودة والسلاح تحت الرجل، وقد نهجت هذه السياسة خصوصا ضد قبيلة الركيبات وأولاد دليم، مما سيتمخض عنه إبرام بعض الاتفاقيات مع المستعمر، لكن هذه الاتفاقيات لم يكن الإلتزام بها إلا في حدود معينة فبمجرد ما تبدأ تساقطات مطرية شمالا إلا وتبدأ أعراش هذه القبيلة المذكورة في شد الترحال إلى الشمال وتتكثف العمليات العسكرية الموجهة ضد المراكز الفرنسية بالجنوب.

وفي هذا السياق ونحن نتحدث عن جهاد قبائل الصحراء بصفة عامة لابد من الوقوف على عدة أسماء سطع نجمها في سماء الجهاد بالجنوب المغربي بقيادتها للغزوات ضد المستعمر يتعلق الأمر بكل من اسماعيل ولد الباردي وأحمد الحمادي وعلي ولد ميارة وولد ميشان إلى غير ذلك. فقد تحمل هؤلاء تضحيات جسام في الدفاع من حوزة الوطن، فاسماعيل ولد الباردي مثلا ضحى بالمشيخة والمال ومات فقيرا، وحتى بعد سيطرة الاستعمار على المنطقة ظلت المخابرات الفرنسية تكتب تقارير دورية منتظمة عن تحركات ولد الباري الذي تصفه الباحثة الفرنسية SOPHIE CARRATENY بأنه بطل المقاومة بالصحراء.

– الجزء الثاني : مقاومة الركيبات في إطار جيش التحرير

إن جهاد هذه القبيلة استمر من خلال المشاركة المكثفة في صفوف قوات جيش التحرير والأدلة على ذلك تألق أبناء هذه القبيلة في قيادتهم للعديد من معارك جيش التحرير، وهكذا نجد معركتي واد الصفا والربيع بقيادة كل من

علي بويا ولد ميارة وابا الشيخ ولد ابا علي رحمهما اللّه، كما خاضوا معارك أخرى كأوسرد بقيادة امحمد ولد زيو، ومعركة العركوب بقيادة محمود ولد بصاصا، كما لا نكاد نقف على هجوم لقوات جيش التحرير ضد المستعمر إلا ونجد في صفوفه أفرادا من قبيلة الركيبات بشهدائها ومجاهديها (هجوم أم العشار سنة 1955 مثلا).

ولما بدأ التصدع في صفوف جيش التحرير بعد إنسحابه إلى مراكز الطنطان وعيون اغمان سيوجه المغفور له صاحب الجلالة محمد الخامس رسالة وهي عبارة عن نداء إلى شرفاء الرگيبات. ونجد الاستهلال الذي بدأ به الرسالة «أيها الرگيبات الشرفاء أيها الإخوة في الدين والوطن، نوجه لكم هذا النداء لتبلغوه لقبائلكم خاصة ولأهل الصحراء بصفة عامة، أن الاستعمار الخبيث يحاول أن يمكر بكم مكرا ويسعى إلى أن يكون منكم وليس الغرض عنده إلا إثارة الفتنة بين المسلمين من أبناء المغرب، إنه يريد بدعايته الكاذبة أن يبعد البعض منكم عن وطنه وعن أمته المغربية. إن الاستعمار يعلم علم اليقين أن بإتحادكم وتضامنكم إلى غير ذلك، مصير بلدكم لا يتعلق إلا بكم لأن أبواب المغرب مفتوحة لكل مجاهد منكم يريد أن يحارب المستعمر». وتعتبر هذه الرسالة فاتحة خير. لذا يمكن أن نستخلص من الرسالة دلالات توضح القيمة الكبرى لقبيلة الرگيبات عند جلالة المغفور له الملك محمد الخامس طيب الله ثراه.

وفي الأخير أود أن أؤكد على ضرورة الاهتمام بالبحث التاريخي بخصوص الماضي الجهادي لقبيلة الرگيبات لأن ما كتبه الفرنسيون عن هذه القبيلة، وهو كثير يحمل في محمله شحنة استعمارية.